سُورَةُ الطَّلَاقِ

حِينَ يَفْتَحُ اللهُ فِي جِدَارِ الْفَقْدِ بَابًا

تَأْلِيفُ : رَدَّادُ السَّلَّامِيُّ

سُورَةُ الطَّلَاقِ

حين يفتح الله في جدار الفقد بابًا

تأليف: رَدَّاد السَّـلَّامِيُّ

سُورَةُ الطَّلَاقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

ثَمَّةَ سُوَرٌ من القرآن تأخذ الإنسان إلى السماء لتريه اتساع الملكوت، وثمّة سور تنزل معه إلى أكثر زوايا حياته ضيقًا واضطرابًا، إلى البيت حين ينكسر هدوؤه، وإلى العلاقة حين تستنفد قدرتها على الاستمرار، وإلى النفس حين تجد نفسها واقفةً بين ماضٍ لم يعد صالحًا للسكن ومستقبلٍ لم تتبين ملامحه بعد؛ وسورة الطلاق من هذا الضرب العجيب من الوحي، فهي لا تتحدث عن الطلاق باعتباره حادثةً قانونيةً جافة، ولا باعتباره مجرد نهاية لعقدٍ بين رجل وامرأة، وإنما تدخل إلى تلك اللحظة التي تختلط فيها المشاعر بالأحكام، والحنين بالغضب، والحق بالجرح، والرحمة بالرغبة في الانتقام، فتأخذ بيد الإنسان إلى موضعٍ أعلى من انفعاله، وتقول له: حتى حين تنكسر العلاقة لا ينبغي أن ينكسر فيك العدل، وحتى حين يتباعد جسدان لا ينبغي أن تتباعد عن الله، وحتى حين تضيق بك الأسباب فلا تجعل ضيق الحادثة يختصر أمام عينيك سعة القدرة الإلهية؛ ولذلك تبدو السورة، على قصر آياتها، كأنها هندسةٌ كاملة للروح وهي تعبر من الخسارة إلى النجاة، ومن الفوضى إلى التقوى، ومن الخوف على المستقبل إلى اليقين بأن الذي أمر هو الذي يرزق، والذي قدّر هو الذي يفتح، والذي أغلق بابًا قد يخلق في الجدار نفسه نافذةً لم تكن في حسبان أحد.

والمدهش أن سورة الطلاق، وهي تتناول واحدًا من أكثر أحداث الحياة الإنسانية قابليةً للتوتر والانفجار، لا تسمح للمؤمن أن ينسى الله لحظةً واحدة؛ فاسم الله، وحدوده، وتقواه، وتوكله، وأمره، وقدره، ورزقه، وأجره، وتكفير سيئاته، كل ذلك يتردد في نسيج السورة حتى نشعر أن القضية في حقيقتها ليست فقط: كيف يقع الطلاق؟ بل: من تكون أنت أمام الله عندما يقع الطلاق؟ هل تظل عبدًا حين يغضب قلبك، كما كنت عبدًا حين أحب؟ هل تستطيع أن تحفظ حدود الله حين لا تعود العاطفة تمدّك بلطفها، وحين يصبح العدل أثقل على النفس من الهوى؟ إن الامتحان الأخلاقي لا يظهر دائمًا في أيام الصفاء، لأن كثيرًا من الناس يحسنون الخلق ما داموا محبوبين، ويعرفون الجميل ما دامت مصالحهم

محفوظة، ولكن لحظة الانفصال تكشف البنية الداخلية للإنسان، ولهذا جاءت سورة الطلاق لتردّ أخطر لحظات الاضطراب العائلي إلى مركز واحد لا يتغير: الله.

الآية الأولى: حتى الفراق له أدبٌ عند الله

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾.

تبدأ السورة بنداء النبي ﷺ، ثم ينتقل الخطاب فورًا إلى الجماعة: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾، وكأن الوحي يضع أخطر قرار شخصي داخل أفق الأمة والقيم والمسؤولية، فلا يترك الطلاق لنزوة الغضب ولا لانفجار الساعة، بل يحيطه من أول لفظة بالنظام والحساب والتقوى؛ ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾، فالانفصال في الإسلام ليس بابًا يركله الإنسان بقدمه ساعة الغضب ثم يمضي، وإنما فعل له زمنه وحدوده وأحكامه، لأن الشرع يريد حتى النهاية أن تكون واعيةً لا متهورة، وحتى الانفصال أن يجري في ضوءٍ يسمح بالمراجعة لا في ظلمة انفعالٍ يقطع كل خيط. ثم يقول: ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾، ويا لها من كلمة في مقام يموج بالعاطفة؛ أحصوا، عدّوا، اضبطوا، لا تتركوا الزمن للمزاج، لأن العدالة تحتاج إلى ذاكرة دقيقة حين تكون النفوس معرضةً لأن تعيد كتابة الوقائع على صورة غضبها، ولأن الله يعلم أن القلب الموجوع قد يبالغ، وأن الغاضب قد يستطيل، فجعل الحساب سياجًا يحمي الإنسان من نفسه قبل أن يحمي الآخر منه.

ثم تأتي الكلمة المركزية التي ستظل تسري في عروق السورة: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾، ولم يقل فقط: اتقوا الله، بل أضاف ﴿رَبَّكُمْ﴾، وكأن في الإضافة تذكيرًا حانيًا مهيبًا بأن الذي يضع هذه الحدود ليس غريبًا عنكم، بل ربكم الذي خلقكم وربأكم ويعلم هشاشتكم وما يختبئ في اللحظة من اندفاعٍ وندم؛ فإذا غابت المودة بين اثنين فلا ينبغي أن يغيب الرب من المشهد، وإذا انتهى سلطان الحب فهناك سلطان أعلى لا ينتهي، سلطان التقوى. ثم يجيء الحكم الذي يحمل وراءه أدبًا إنسانيًا دقيقًا: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾، والتعبير لافت؛ فالبيت، في هذا السياق، ما زال يُنسب إليهن: ﴿بُيُوتِهِنَّ﴾، مع أن العلاقة

تقف عند حافة الانتهاء، وكأن القرآن يرفض أن تتحول المرأة بمجرد وقوع الطلاق إلى غريبةٍ تُطرد من المكان الذي كان بالأمس سكنها، ويرفض أن يصبح الغضب آلةً لمحو الكرامة والذاكرة والحقوق دفعةً واحدة. إن القرآن لا يعالج الفراق بطريقة تزرع مذلةً جديدة فوق ألم الفراق، بل يحفظ للمرحلة الانتقالية حرمتها ومساحتها، لأن الإنسان حين يهتز وجدانه يحتاج إلى نظام يحميه من القرارات التي قد يصنعها الغضب ثم يدفع ثمنها العمر.

وحين يقول سبحانه: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾، تتحول التفاصيل من مجرد ترتيبات منزلية إلى حدود مقدسة؛ فالبيت والعدة والإقامة والتوقيت ليست أمورًا هامشية يمكن أن تعبث بها رغبات الأفراد، وإنما خطوط يرسمها الله ليظل العدل قائمًا حين يسقط جدار العاطفة. ثم تأتي العبارة العجيبة: ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾، مع أن المتبادر أن المعتدي قد يظلم المرأة أو الطرف الآخر، لكن القرآن يذهب أعمق من ذلك، فيكشف أن أول ضحايا الظلم هو الظالم نفسه، لأن كل معصية تشوّه صاحبها قبل أن تصل آثارها إلى ضحيتها، وكل تجاوز لحدود الله هو كسرٌ لشيء في النفس، وإفقادٌ لها من نورها واتزانها وإنسانيتها؛ وحين ينتقم المرء من غيره بباطل يظن أنه يصيب خصمه، بينما تكون الطعنة قد دخلت أولًا في ضميره هو.

ثم تنفتح في آخر الآية نافذة لم تكن متوقعة في مشهد يبدو كأنه مشهد نهاية: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾. وهذه من أوسع عبارات الرجاء في السورة كلها؛ فالإنسان يرى اللحظة، والله يعلم ما بعدها، والإنسان يبني حكمه على حرارة الساعة، والله يملك أن يُحدث بعد ذلك أمرًا لم يكن في الحسبان؛ ربما رجعةً بعد جفوة، وربما بصيرةً بعد غضب، وربما انفصالًا يكون أرحم من استمرار الأذى، وربما حياةً جديدة لم تكن لتولد إلا بعدما انتهى الشكل القديم من الحياة. إن ﴿لَا تَدْرِي﴾ ليست نقصًا فحسب، بل رحمة؛ لأنك لو عرفت كل المستقبل لأرهقك حمله، أما الآن فمهمتك أن تطيع في اللحظة، وأن تترك لله مساحة الغيب؛ ففي كثير من أزماتنا لا تكون الكارثة في أن الباب أُغلق، بل في أننا نتوهم أن الله لم يعد يملك بابًا آخر.

الآية الثانية: حين تنتهي العلاقة ويبقى المعروف

ثم يقول سبحانه: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾.

تبلغ العدة مقطعًا حاسمًا، ويقف الإنسان أمام خيارين: إمساك أو فراق، لكن اللافت أن القرآن يربط الخيارين معًا بكلمة واحدة: ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾؛ فالمعروف ليس خُلُقًا خاصًا باستمرار الزواج، وإنما هو خلق الإنسان المؤمن في الاجتماع والافتراق معًا، وحين لا تعود قادرًا على أن تحب كما كنت، فأنت ما زلت قادرًا على ألا تظلم، وحين لا تستطيع أن تُبقي العلاقة فلا أقل من أن تُبقي إنسانيتك. إن بعض الناس يظنون أن المعروف ينتهي حين تنتهي المصلحة المشتركة، فيتحول السر إلى سلاح، والذكرى إلى مادة تشهير، والضعف الذي عرفه كل طرف عن الآخر إلى خنجرٍ يُستخرج عند الخصومة، لكن القرآن يقول: ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾؛ أي إن الفراق نفسه يمكن أن يكون فعلًا أخلاقيًا، وإن النهاية يمكن أن تكون نظيفة، وإن الإنسان قد يغلق بابًا دون أن يحرق البيت كله.

ثم تأتي الشهادة والعدل: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾، وكأن السورة تبني حول القرار الفردي شبكةً من المسؤولية تمنع العبث بالحقوق، ولكن الأعجب من طلب الشهادة أن تكون ﴿لِلَّهِ﴾، لأن الشاهد قد يقف في الظاهر بين رجل وامرأة، لكنه في الحقيقة يقف أمام الله، وهكذا ينقل القرآن الأخلاق من مراقبة الناس إلى مراقبة الرب، فلا تكون الشهادة خدمةً لصديق، ولا انتصارًا لقريب، ولا مشاركةً في خصومة، بل عبادةً يؤديها المرء لله، فينزع نفسه من هوى الأطراف ويردّها إلى ميزان الحق.

ثم يقول: ﴿ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، فيربط التعامل داخل البيت بعقيدة الآخرة؛ لأن الإيمان باليوم الآخر ليس فكرةً معلقةً في أفق بعيد، وإنما قوة تدخل في أدق التفاصيل الإنسانية، فتمنعك من ظلم إنسانٍ ضعيف لأنك تعلم أن هناك

يومًا لا تضيع فيه الحقوق، وتجعلك تعترف بما عليك حين تستطيع المراوغة، لأنك تؤمن بمحكمة لا تخدعها الأوراق ولا البلاغة ولا رواية الأقوى للأحداث. ثم، في الموضع الذي قد يقول فيه المرء: إذا التزمت بهذه الحدود فمن أين تأتي نجاتي؟ كيف أخرج من هذا الضيق؟ ماذا عن المال والسكن والأولاد والمستقبل؟ يجيء الجواب الذي صار من أعظم مفاتيح الرجاء في القرآن: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾.

والمخرج هنا أوسع من أن يكون بابًا ماليًا أو حلًا لمشكلة بعينها؛ إنه وعد بأن التقوى لا تحبس الإنسان داخل الجدار الذي حبسه فيه الظرف، وأن لله من هندسة الأسباب ما لا يراه العقل المحاصر بلحظته. والتعبير ﴿يَجْعَلْ﴾ يحمل معنى الإنشاء، كأن المخرج قد لا يكون موجودًا في خريطة الأسباب التي أمامك الآن، لكن الله قادر أن يجعله، أن يخلقه، أن يفتح منفذًا حيث لا ترى إلا انسدادًا. ونحن كثيرًا ما نظن أن النجاة تسبق الطاعة، فنقول: أعطني ضمانًا للمستقبل ثم ألتزم، بينما منطق السورة معاكس: اتق الله في اللحظة التي تضيق فيها الخيارات، ثم انظر كيف ينشئ الله من داخل التقوى طريقًا لم يكن مرئيًا.

الآية الثالثة: رزقٌ يأتي من خارج خرائطك

ويتابع سبحانه: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾.

هنا تكتمل صورة المخرج؛ فهو ليس مجرد منفذ من الضيق، بل قد يتبعه رزق يأتي ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾، والاحتساب هو منطقة حساباتك وتوقعاتك، ما تضعه في الجداول الذهنية من احتمالات معقولة وأبواب مألوفة ووجوه يمكن أن يأتي منها الفرج، لكن الله يعلن أن رزقه لا يُحبس داخل علمك المحدود؛ فقد يأتيك الحل من طريق لم تلتفت إليه، ومن شخص لم تعتمد عليه، ومن تغيرٍ لم تطلبه، ومن باب كنت تظنه بعيدًا، وربما يأتي الرزق في صورة قوة قلب بعد أن كنت تطلب مجرد تغير ظرف، أو في صورة وعي ينجيك من تكرار الخطأ، أو في صورة ستر وسكينة ونضج لا يمكن قياسه بالمال. وهذا لا يلغي الأخذ بالأسباب، لكنه يكسر عبادة الأسباب؛ فالسبب طريق، وليس ربًا،

والوظيفة سبب، والإنسان سبب، والعلاقة سبب، لكن خزائن الله أوسع من أن تُختزل في واحد منها.

ثم يقول: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾، والحسب هو الكفاية؛ أي إن القلب الذي صدق في اعتماده على الله لا يقف في الفراغ حتى لو سقط من يده ما كان يتكئ عليه، لأن وراء الأسباب رب الأسباب. وليس التوكل استقالةً من الفعل، بل تحرير للفعل من الهلع؛ تعمل، وتراجع، وتنفق، وتسعى، وتحفظ الحق، لكنك لا تجعل قلبك رهينةً لنتيجة واحدة، لأنك تعلم أن الله ﴿بَالِغُ أَمْرِهِ﴾. وكم في هذه العبارة من مهابة وسكينة معًا؛ فقد تتعقد الأسباب، ويتأخر الحل، ويغلق الناس أبوابهم، وتضيق الخيارات، لكن أمر الله بالغ، لا يتعطل لأن بشرًا رفض، ولا يتوقف لأن طريقًا انهار، ولا يرجع لأن الظروف بدت معاكسة. أمره يصل إلى غايته، وما أراده لا تمنعه كثافة الجدران.

ثم تأتي الجملة التي تعيد التوازن إلى النفس حين تستبطئ الفرج: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾. لكل شيء مقدار، وزمان، وحد، ومسافة؛ حتى الألم له قدر، والانتظار له قدر، والعسر له قدر، والمرحلة التي تظن أنها بلا نهاية قد كتب الله لها نهاية لا تتجاوزها. إننا نتعب كثيرًا حين نريد من الأشياء أن تنضج قبل أوانها، وأن تخرج من أرحامها قبل اكتمالها، لكن السورة تعلمنا أن الإيمان بالقدر ليس مجرد التصديق بأن الله علم ما يكون، وإنما السكينة إلى أن لكل شيء توقيتًا لا يفلت من حكمته؛ فالجرح لن يبقى مفتوحًا إلى الأبد، والليل ليس مخلوقًا بلا فجر، والعسر مهما أحكم جدرانه محكوم بقدر الله، لا بقدرته هو على البقاء.

الآية الرابعة: الشريعة ترى الحالات التي يربكها الإنسان

ثم يقول تعالى:ﭽ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾.

تدخل السورة هنا في التفاصيل التي قد تبدو للقارئ لأول وهلة أحكامًا زمنيةً مجردة، غير أن وراءها معنى كبيرًا في طبيعة الشريعة نفسها؛ فهي لا تشرّع للإنسان الافتراضي البسيط الذي تسير حياته وفق نموذج واحد، بل ترى اختلاف الأحوال وتفاوت الأجساد والظروف، وتضع لكل حالة ما يناسبها من حكم، لأن عدل الوحي ليس قالبًا أعمى، بل ميزان يراعي الواقع دون أن يذوب فيه. وتُذكر المرأة التي يئست من المحيض، والتي لم تحض، والحامل، فيأتي لكل حالة حسابها، حتى لا يبقى الغموض مدخلًا للظلم أو الفوضى، وحتى يعلم الإنسان أن الله الذي شرع الحكم يعلم جسده وزمنه وتفاصيل حياته التي قد يجهلها الآخرون.

لكن السورة لا تترك الفقه منفصلًا عن الروح، فبعد أن تذكر التفاصيل الدقيقة تعود فورًا إلى التقوى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾، وكأنها تقول إن الأحكام وحدها لا تكفي ما لم يكن وراءها قلب يتقي، وإن أعقد العلاقات لا تُحل بكثرة الحيل بقدر ما تُحل حين يدخل عليها الصدق والخوف من الله. واليسر هنا ليس وعدًا بأن المؤمن لن يرى المشقة، فالسورة نفسها نزلت في سياق مشقة وانفصال وتكاليف، وإنما هو أن يجعل الله داخل الأمر العسير مسالك يُحتمل بها، وأن يخفف من تعقيده، أو يهب القلب قوةً تفوق حمله، أو يمنح صاحبه بصيرةً يرى بها ما كان يراه ظلامًا محضًا. إن اليسر القرآني ليس دائمًا إزالة الجبل من الطريق؛ أحيانًا يكون إعطاءك قدمين أقوى، وأحيانًا فتح ممر في الجبل، وأحيانًا كشف الحكمة التي تجعل صعوده محتملًا.

ومن الجميل أن يتكرر وعد التقوى بصورتين متتاليتين: في الآية السابقة ﴿يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾، وهنا ﴿يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾؛ فربما كان المخرج تغييرًا في الخارج، وربما كان اليسر تغييرًا في طريقة عبور الداخل، والله يملك الاثنين معًا. قد لا يتغير جميع الناس من حولك، ولكن تتغير أنت، وقد لا تعود العلاقة، ولكن تعود إلى قلبك طمأنينته، وقد لا يأتي الحل كما تمنيت، لكنه يأتي بطريقة تجعلك بعد زمن تقول: الآن فهمت لماذا كان طريق النجاة مختلفًا عن الطريق الذي أصررت عليه.

الآية الخامسة: حين يكون احترام الحدود طريقًا لمغفرة الماضي

ثم يقول سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾.

بعد التفاصيل كلها يأتي التذكير بأصلها: ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ﴾، ليست أعرافًا اجتماعية قابلةً لأن يلغيها الغضب، ولا ترتيبات بشرية يقبل منها الإنسان ما وافق هواه ويرد ما أتعبه، بل أمر الله ﴿أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾، وفي فعل الإنزال معنى العلو، فكأن هذه الأحكام تنزل على الفوضى البشرية لتمنحها ميزانًا أعلى منها. الإنسان داخل الخصومة يرى جزءًا من الصورة، يرى ألمه وذكرياته وحقوقه كما يتصورها، أما الشرع فيأتي من فوق محدودية الأطراف ليضع الحد الذي لا ينبغي لأحد أن يتجاوزه.

ثم تتكرر التقوى للمرة الثالثة في هذا السياق، ولكن بثمرة جديدة: ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾. كأن التقوى ليست فقط مفتاحًا للخروج من الأزمة، بل بابًا لإصلاح التاريخ الشخصي نفسه، أنت تدخل المحنة ومعك ماضٍ من التقصير والسيئات، فإذا اتقيت الله فيها صارت اللحظة التي حسبتها خسارةً محضة سببًا في تكفير السيئات وتعظيم الأجر. وهذا انقلاب عجيب في معنى الابتلاء، فقد يأتي الإنسان إلى الأزمة وهو يسأل: ما الذي أخذته مني؟ بينما الإيمان يعلمه أن يسأل أيضًا: ما الذي يمكن أن تصنعه هذه الأزمة في صحيفتي إذا أحسنت العبور؟ كم من وجع تحوّل بالصبر والعدل إلى حسنات، وكم من خسارة مادية صارت سببًا في نجاة أخروية، وكم من لحظة كبح فيها الإنسان لسانه عن التشهير ويده عن الظلم فكانت أثقل في ميزان الله من ساعات عبادة لم تُختبر فيها أخلاقه على هذا النحو.

إن أجمل ما في هذا الوعد أن الله لا يقول فقط: يؤجره، بل ﴿يُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾، لأن التقوى حين تكون سهلة ليست كالتقوى حين تأتي والنفس قادرة على الانتقام، والصفح حين لا توجد إساءة ليس كالصفح بعد الجرح، والعدل مع من تحب ليس كالعدل مع من خاصمت. ولهذا تكون بعض المحن ساحات لصناعة مقامات روحية لا تستطيع الراحة أن تصنعها، ففي الراحة تعرف ما تؤمن به، وفي الألم تعرف مقدار ما صار من إيمانك خُلُقًا حيًا.

الآية السادسة: لا تجعل انتهاء المودة بدايةً للإيذاء

ثم يقول تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ﴾.

هنا ينزل الوحي إلى البيت مرةً أخرى، لا بوصفه مكانًا من حجارة، بل بوصفه اختبارًا للكرامة بعد أن تغير شكل العلاقة، ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ﴾، أي بحسب السعة والقدرة، فلا تكون الأزمة ذريعةً لنزع كل حماية، ثم تأتي الجملة التي تكاد تلخص فلسفةً كاملة في أخلاق الانفصال: ﴿وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾. فالضرر قد يكون مباشرًا ظاهرًا، وقد يكون أكثر خبثًا حين يستخدم الإنسان الوسائل المشروعة في ظاهرها ليصنع بها تضييقًا متعمدًا، يتأخر ليؤلم، ويمنع ليكسر، ويماطل لينتقم، ويجعل الحاجة أداة إذلال. والقرآن لا يكتفي بمنع الصورة الفجة من الظلم، بل يكشف النية الكامنة وراء صناعة الضيق؛ لأن الله لا يرى فقط ما فعلت، بل يعلم لماذا فعلته.

ثم يذكر الحمل، ذلك الكائن الثالث الصامت الذي لا ينبغي أن يدفع ثمن النزاع بين اثنين، ﴿وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾، فيحفظ الشرع للجنين حقه من وراء جدار الخصومة، ويعلّم الإنسان أن الخلاف بين الكبار لا يبيح إهمال الضعفاء الذين تعلق مصيرهم بهم. ثم إذا وقع الرضاع قال: ﴿فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾، فلا تُستهلك عاطفة الأم باعتبارها موردًا مجانيًا تُبنى عليه الحقوق دون مقابل حيث يثبت المقابل، بل يُعترف بعملها وحقها، ثم يقول: ﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾؛ تداولوا الأمر، تشاوروا، تعاقدوا، لا تجعلوا الطفل ساحةً لتصفية الحسابات، ولا تحولوا حاجاته إلى رسائل انتقام متبادلة.

ثم تأمل واقعية القرآن: ﴿وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ﴾. لم يقل الوحي إن كل خصومة ستنتهي إلى توافق مثالي، ولم يبن أحكامه على بشرٍ بلا أعصاب ولا جراح، بل اعترف بإمكان التعاسر ووضع له بديلًا. وهذه واقعية رحيمة؛ فالشريعة لا تشترط أن يصير المتخاصمان صديقين حتى تحفظ الحقوق، وإنما تضع نظامًا يستطيع أن يعمل حتى حين

تفشل المشاعر. وكم نحتاج إلى هذا المعنى في الحياة كلها: ليست كل المشكلات تُحل بتحسين المشاعر، وبعضها يحتاج إلى نظام عادل يحمي الأطراف حين تعجز القلوب عن التصافي.

الآية السابعة: العدالة لا تطلب من الفقير أن يعيش كالغني

ثم يقول سبحانه: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ۚ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾.

هذه الآية وحدها تستطيع أن ترفع عن كثير من القلوب حمل المقارنة؛ فالإنفاق ليس رقمًا واحدًا مفروضًا على الجميع، وإنما ﴿ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾، والذي ضُيّق عليه رزقه ينفق ﴿مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾. إن العدالة القرآنية لا تعني مساواةً عمياء بين قدرات متفاوتة، وإنما تعني أن يُطالب كل إنسان بما يقع داخل وسعه. والغني لا يليق به أن يتذرع بمعيار الفقير ليبخل، والفقير لا يطالَب بمظهر الغني حتى ينهار؛ فالله الذي خلق تفاوت الأرزاق لا يقيس الناس بمقياس واحد منفصل عن أحوالهم.

ثم تأتي قاعدة جليلة: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾. والمثير أن التعبير هنا ليس «إلا وسعها» كما في موضع آخر، بل ﴿إِلَّا مَا آتَاهَا﴾، فيرتبط التكليف بالعطاء؛ فما طلب منك إلا وفي أصل حياتك شيءٌ أعطاكه لتقوم به، وكل تكليف وراءه منحة ما: عقل، أو قدرة، أو مال، أو صبر، أو فرصة، أو طريق. وإذا شعرت أن ما بين يديك قليل، فلا تحتقر القليل، لأن الله لا يطلب منك ما عند غيرك، وإنما يسألك عما آتاك أنت. وهذه قاعدة لو دخلت القلب أراحته من مرض المقارنة، لأن كثيرًا من الناس لا يعذبهم نقصهم الحقيقي بقدر ما يعذبهم النظر المستمر إلى عطايا غيرهم.

ثم بعد كل هذا الحديث عن النفقة المحدودة، والسكن، والحمل، والأجور، وربما ضيق المال بعد انهيار الأسرة، تأتي العبارة التي تشبه يدًا تُمد من الغيب إلى القلب: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾. لم يقل: مع العسر هنا، بل قال: ﴿بَعْدَ عُسْرٍ﴾، وكأن السورة تعترف بأن هناك مراحل لا يشعر الإنسان خلالها باليسر بعد، وأن عليه أن يعبر مقدارًا من العسر قبل أن يرى صفحة أخرى من القصة. لكن حرف السين في ﴿سَيَجْعَلُ﴾ يحمل وعد

المستقبل، ما تراه الآن ليس الفصل الأخير، والعسر ليس هوية الحياة، بل مرحلة لها ما بعدها. والأجمل أن الفاعل هو الله: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ﴾، أي إن اليسر ليس مجرد احتمال إحصائي، بل داخل في سلطان من بيده تحويل الأحوال.

كم من إنسان في ساعة الفقد ظن أن حياته انقسمت إلى ما قبل المصيبة وما بعدها، وأن «ما بعدها» لن يكون إلا نسخة أكثر ظلمة، ثم مرت الأيام فإذا بالله يبني في مساحة الخراب معنى جديدًا، ويصنع من الخسارة وعيًا، ومن الوحدة قربًا، ومن الانكسار معرفةً بالنفس، ومن الباب المغلق طرقًا لم يكن المرء ليكتشفها لو بقي كل شيء كما كان. ليس كل يسر عودةً لما فقدت، أحيانًا يكون اليسر أن تتحرر من اعتقادك أن الحياة لا تصلح إلا بما فقدت.

الآية الثامنة: حين تتحول مخالفة الأمر من سلوك فردي إلى مصير حضاري

ثم تنتقل السورة فجأةً من البيت الصغير إلى التاريخ الكبير، فيقول تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا﴾.

هذا الانتقال ليس غريبًا كما قد يبدو، فمن يتأمل السورة يدرك أن القرآن يريد أن يقول إن «أمر الله» واحد في البيت وفي المدينة، وإن الاستهانة بحدوده ليست شأنًا خاصًا بلا امتداد. فالظلم يبدأ أحيانًا في زاوية صغيرة، في حق امرأة أو طفل أو ضعيف، ثم إذا صار ثقافةً تمدد حتى يصبح بنية مجتمع كاملة؛ ولهذا ينتقل الخطاب من رجل وامرأة يتعاملان عند الطلاق إلى قرى ﴿عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا﴾. والعُتو ليس مجرد خطأ عابر، بل استكبار وصلابة في المخالفة، كأن الإنسان لا يكتفي بالزلل بل يجعل منه موقفًا متعاليًا على الحق.

ثم يقول سبحانه: ﴿فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾، والحساب يتناسب مع شعور الإنسان بأنه كان يستطيع أن يعيش بلا ميزان، وبأن القوة أو العمران أو الكثرة تحميه من عاقبة انحرافه. وهنا يتسع درس سورة الطلاق: الحقوق ليست تفاصيل هامشية، لأن المجتمعات لا تنهار فقط بالحروب الكبرى، بل قد يبدأ انهيارها يوم يصبح الظلم المنزلي عاديًا، ويصبح أكل الحقوق مهارة، ويصبح الضعيف بلا صوت، ويصبح الأقوى قادرًا على إعادة

تعريف المعروف بما يخدمه. الحضارة في التصور القرآني ليست أبراجًا فقط، وإنما مقدار العدل الذي يحكم ما وراء الأبواب المغلقة.

الآية التاسعة: لا توجد معصية بلا أثر

ثم يقول: ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾.

تأمل كلمة ﴿فَذَاقَتْ﴾، فالوبال لا يبقى فكرةً في كتاب، وإنما يُذاق، يصبح خبرةً محسوسة، لأن للأفعال طعمًا متأخرًا، وقد يفعل الإنسان الشيء اليوم ولا يرى نتيجته فورًا فيظن أنه نجا، بينما تكون العاقبة قد بدأت سيرها إليه في هدوء. ومن أخطر أوهام البشر أنهم يساوون بين تأخر الثمرة وانعدامها، فإذا ظلم ولم يُؤخذ من ساعته ظن أن الظلم بلا فاتورة، وإذا خان ولم ينكشف تخيل أن الخيانة ذكاء، لكن القرآن يعلمنا أن للأفعال وبالًا، وأن الزمن قد يكون مجرد المسافة بين البذرة وحصادها.

ثم تأتي الخلاصة: ﴿وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾. والخسر ليس دائمًا انهيارًا ظاهرًا أمام الناس؛ قد يخسر الإنسان سلامه الداخلي وهو ما يزال يربح المال، وقد يخسر أهله وهو يحسب نفسه منتصرًا في الخصومة، وقد يخسر صورته في قلب أبنائه بينما يظن أنه أثبت قوته، وقد تخسر أمة ثقتها وعدلها وتماسكها قبل أن تسقط مبانيها. القرآن ينظر إلى العاقبة لا إلى اللمعة الأولى للفعل، ولهذا هو كتاب يحرر الإنسان من سحر اللحظة؛ لا تسأل فقط: ماذا سأكسب الآن؟ اسأل: إلى أين يقود هذا الطريق؟

الآية العاشرة: الخوف الذي يردّ الإنسان إلى رشده

ثم يقول تعالى: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾.

بعد ذكر العاقبة يأتي النداء: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾، وكأن التقوى ليست خصمًا للعقل بل ثمرة من ثماره؛ صاحب اللب، صاحب العقل الخالص من القشور، هو الذي يعرف أن الإنسان لا يستطيع أن يبني حياته على الأهواء وحدها، وأن القدرة المؤقتة على فعل الشيء لا تعني أن فعله حكمة. ومن لطيف التعبير أن يُنادى المؤمنون بوصفهم

﴿أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ بعد الحديث عن مصائر الأمم، لأن العقل الحقيقي لا يكتفي بتحليل أسباب الآخرين بعد سقوطهم، بل يقرأ التاريخ مرآةً لنفسه: إذا كانت هذه سنن الله فيمن عتا، فما الذي يحميني إن سلكت الطريق نفسه؟

ثم يقول سبحانه: ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾، فالإنسان في خضم مشكلاته ينسى، والذكر يعيد ترتيب الذاكرة؛ يذكّرك بأنك عبد حين تتصرف كأنك مالك مطلق، ويذكرك بالآخرة حين تضيق الرؤية إلى لحظة الانتقام، ويذكرك بالرزق حين ينهشك الخوف، ويذكرك بالحدود حين يحاول الغضب أن يقنعك بأن الضرورة تبيح لك كل شيء. ولذلك كان القرآن ذكرًا، لأنه لا يضيف إلى الإنسان معلومات فحسب، بل يعيد إليه الحقائق التي يطمرها غبار الانفعال.

الآية الحادية عشرة: الرسالة التي تُخرج من ظلمات الداخل قبل ظلمات الخارج

ثم يقول سبحانه: ﴿رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾.

هنا يتحدد الذكر في الرسالة المتلوة، في رسول يتلو آيات الله المبينات، والغرض ليس مجرد أن يعرف الناس حكم الطلاق وعدته ونفقته، بل الغاية الكبرى: ﴿لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾. وما أكثر الظلمات التي يمكن أن تحاصر الإنسان ساعة الخصومة: ظلمة الغضب، وظلمة الخوف من الفقر، وظلمة الشماتة، وظلمة الرغبة في السيطرة، وظلمة التصورات السوداء عن المستقبل، وظلمة رواية أحادية يرى فيها نفسه بريئًا من كل تقصير والآخر أصل كل شر. والقرآن يدخل هذه الطبقات كما يدخل الضوء غرفةً أُغلقت نوافذها طويلًا، فيُريك نفسك والآخر والحدث وربك على نحو أكثر صدقًا.

إن الخروج من الظلمات إلى النور ليس حدثًا معرفيًا فقط، وإنما حركة أخلاقية؛ لذلك قرن الإيمان بالعمل الصالح. قد يعرف الإنسان الحكم، لكنه لا يخرج إلى النور حتى يصير الحكم سلوكًا، وحتى يتحول معنى التقوى إلى إمساك لسان، وأداء نفقة، وحفظ سر، وعدل

في شهادة، ورحمة بطفل، وامتناع عن المضارة. وفي هذا تتجلى قوة القرآن: لا يريد أن يملأ الرأس بمصطلحات، بل أن يصنع نوراً في طريقة الحياة.

ثم ينتقل المشهد من ضيق البيوت وأقساط النفقة وحساب الأشهر إلى ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾. كأن الوحي يقول لمن ضاق عليه بيته أو فقد استقراره: لا تجعل آخر أفقك جدار المنزل الذي تغيرت أحواله؛ هناك دار لا طلاق فيها ولا فراق ولا خوف من نفقة ولا غدر من قلب، وهناك إقامة وصفها الله بالخلود. إن الآخرة توسع المعنى حين تضيق الدنيا؛ فمن أعظم أسباب قسوة الأزمات أننا نتعامل معها كأنها كل الوجود، بينما المؤمن يحمل في وعيه حياةً أكبر من هذه الحياة، ولهذا يستطيع أن يخسر شيئًا دون أن يشعر أنه خسر كل شيء.

ثم تختم الآية بقوله: ﴿قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾. بدأت السورة بالخوف على السكن والنفقة والمستقبل، ومرّت بوعد الرزق من حيث لا يحتسب، ثم تصل هنا إلى رزق الجنة؛ كأنها توسع مفهوم الرزق تدريجياً حتى لا يبقى الإنسان أسير الورقة النقدية. الرزق بيت وسلام وستر وهداية وقوة قلب ورفيق صالح وبصيرة، وأعلاه رضا الله والجنة؛ ومن اختزل الرزق في المال عاش فقيراً ولو امتلأت يداه.

الآية الثانية عشرة: من ضيق البيت إلى سعة السماوات

ثم تأتي خاتمة السورة مدهشة في اتساعها: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.

يا لعظمة هذا الانتقال؛ سورة بدأت ببيتٍ تضطرب داخله علاقة بين رجل وامرأة، وتنتهي بالسماوات والأرضين، كأن الوحي بعد أن عالج أدق التفاصيل يريد أن يرفع رأس الإنسان من أوراق المشكلة إلى فضاء الملكوت، ليقول له: رب هذه القضية الصغيرة في نظرك هو رب السماوات السبع، والذي يدبر العدة والنفقة والسكن هو نفسه الذي يتنزل أمره في هذا الكون الهائل؛ فلا تتوهم أن شأنك الصغير ضاع في زحام الخلق، ولا تتوهم كذلك أن مشكلتك أكبر من قدرة من خلق السماوات.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾، فإذا كان هذا خلقه، فكيف تضيق قدرته عن مخرج لمشكلتك؟ وإذا كان يدبر هذا الاتساع الذي يعجز الخيال عن احتوائه، فكيف تعجز حكمته عن تدبير أيامك المقبلة؟ نحن كثيرًا ما نقيس الله على حجم أسبابنا، فإذا أغلقت الأسباب قلنا في أعماقنا: انتهى الأمر، لكن خاتمة السورة تكسر هذا الوهم من جذره؛ أنت لا تتوكل على مجموع الفرص المتاحة أمامك، وإنما على خالق السماوات والأرض.

ثم يقول: ﴿يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾، والأمر الذي تكرر في السورة يعود هنا في نطاق كوني؛ ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ في أحكام الحياة، وها هو الأمر نفسه يتنزل بين السماوات والأرض. ليست شريعة البيت منفصلة عن نظام الكون، فمصدرهما واحد؛ الذي وضع للأفلاك مقاديرها وضع للحقوق حدودها، والذي منع الأجرام من أن يطغى بعضها على بعض بحكمته يريد من الإنسان ألا يطغى على أخيه أو زوجته أو مطلقته. الكون قائم بأمره، والمجتمع لا يستقيم حقًا إلا حين يخضع لأمره.

ثم تكشف السورة غايتها المعرفية العظمى: ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾. القدرة والعلم، وهما بالضبط ما يحتاج القلب إلى استحضاره في لحظة الخوف. أحيانًا تخاف لأنك تقول: هل يمكن أن يتغير شيء؟ فيأتيك جواب القدرة: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. وأحيانًا تتألم لأنك تقول: هل يعلم أحد حقيقة ما جرى داخلي؟ هل يعرف ما تحملت وما خسرته وما أخفيته؟ فيأتي جواب العلم: ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾. لا شيء خارج القدرة، ولا شيء خارج العلم؛ فأي موضع بقي لليأس؟

وهنا يظهر البناء العجيب للسورة كلها؛ فقد بدأت بأزمة إنسانية يخيَّل لصاحبها أنها محاصرة بجدران البيت، ثم أخذت توسع الأفق خطوةً خطوة: حدود الله، التقوى، المخرج، الرزق، التوكل، القدر، اليسر، تكفير السيئات، تعظيم الأجر، قانون سقوط الأمم، الآخرة، الجنة، ثم السماوات السبع والعلم المحيط والقدرة الشاملة. وكأن القرآن يعالج الضيق بتوسيع الرؤية؛ فما يختنق في قلبك حين تنظر إليه منفردًا قد يستقيم موضعه حين تراه داخل ملك الله كله.

سورة الطلاق: تربية الإنسان حين لا تسير الحياة كما أراد

إذا أردنا أن نصغي إلى النغمة الأعمق التي تجري تحت أحكام هذه السورة، فسنجد أنها تربي الإنسان على العبودية في اللحظة التي لا تجري فيها الحياة وفق رغبته. من السهل نسبيًا أن تقول: «رضيت بالله ربًا» ما دامت الأشياء التي تحبها باقية، لكن الاختبار الأعظم يأتي حين يسقط من يدك شيء كنت تظنه جزءًا من تعريفك لنفسك؛ بيت، زواج، قرب، استقرار، صورة للمستقبل. هنا يصبح السؤال: هل الله ربك فقط في القصة التي كتبتها أنت، أم هو ربك أيضًا حين يكتب لك قدرًا لم تكتبه؟

سورة الطلاق لا تحتقر الألم، فهي تشرع له وتحوطه وتنظم آثاره، لكنها ترفض أن تمنحه مقام الألوهية في النفس؛ لا تجعل الحادثة تملك تفسير كل شيء، ولا تجعل الشخص الذي فارقك يحمل مفاتيح مستقبلك، ولا تجعل خسارتك الحالية حَكَمًا على بقية عمرك. هناك دائمًا في السورة طرف ثالث أعلى من الطرفين: الله؛ وإذا دخل الله في رؤية الإنسان للأزمة تغير وزن الأشياء كلها. قد يبقى الحزن، لكنه لا يعود سيّدًا مطلقًا، وقد يبقى العسر، لكنه يصبح عسرًا ذا قدر، وقد يبقى السؤال، لكنه يعيش تحت سقف علم الله لا في فراغ العبث.

والتقوى في هذه السورة ليست كلمة وعظية تتكرر لتجميل النص، بل هي المحور العملي الذي يربط أجزاءه جميعًا؛ التقوى حين تطلق، والتقوى حين تحسب العدة، والتقوى حين تنفق، والتقوى حين تختلف، والتقوى حين تخاف من المستقبل، والتقوى حين تجد نفسك قادرًا على إيذاء من جرحك. ولهذا جاءت ثمارها متنوعةً بقدر تنوع المخاوف: ﴿يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ لمن أحاط به الانسداد، ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ لمن يخاف الفقر، ﴿يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ لمن أثقلته التعقيدات، ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾ لمن يحمل أوزار ماضيه، ﴿وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ لمن يسأل عن معنى احتماله؛ كأن التقوى شجرة واحدة، لكن ثمارها تنزل على الإنسان بحسب جوعه.

ومن لطائف السورة العظيمة أن لفظ «الأمر» ينسج خيطًا بين أولها وآخرها، ﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾، ﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾، ﴿يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾، ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ﴾، ﴿عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا﴾، ثم ﴿يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾؛ وكأن السورة

تعلمك أن أمرك الشخصي لا يستقل عن أمر الله، وأن ما تعجز عن ترتيبه يقع داخل سلطان تدبيره، وأن النجاة ليست في أن تفرض أمرك على الحياة، بل في أن تستقيم مع أمر الله حتى يتولى الله من أمرك ما لا تقدر عليه.

وكذلك تتكرر كلمة «يجعل» على نحو يستوقف القلب: ﴿يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾، ﴿يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾، ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾؛ وكلها توحي بأن الله ليس محكومًا بما هو موجود الآن، بل يخلق من بعده شيئًا جديدًا. وهذا هو أصل الرجاء: لو كان المستقبل مجرد امتداد ميكانيكي للحاضر لكان اليأس منطقيًا في كثير من المآزق، لكن لأن الله «يجعل»، فإن المستقبل لا يُستخرج كله من معطيات الساعة الراهنة. هناك فعل إلهي يمكن أن يدخل على المعادلة فيغيّرها، وهناك أقدار لم تصل بعد، وهناك أشخاص لم تعرفهم، وأبواب لم تُفتح، ونضج لم يكتمل، ودعوات لم تر جوابها، وخير قد يسير إليك من طريق لا تستطيع الآن أن تراه.

حين يكون الفقد بداية معرفة

لعل من أعمق ما تربي عليه سورة الطلاق أن بعض النهايات ليست حكمًا على قيمة الإنسان، وأن انتهاء علاقة لا يعني انتهاء صلاحية القلب للحياة. نحن أحيانًا نخلط بين فقد الشيء وفقد المعنى، فإذا خرج شخص من حياتنا ظننا أن الحياة خرجت معه، وإذا انهدمت صورة للمستقبل حسبنا أن المستقبل نفسه قد انهدم، لكن السورة تفرق بهدوء بين «ما انتهى» و«ما بقي»، وبين «ما فقدت» و«من بقي لك». يبقى الله، وتبقى كرامتك، ويبقى عملك، ويبقى طريقك إليه، ويبقى احتمال أن يحدث الله بعد ذلك أمرًا.

وليس المقصود أن يُصبغ الألم بلون وردي مزيف، أو أن يُقال لمن انكسر: لا تحزن؛ فالقرآن أصدق من هذا التبسيط، لكنه يعلم الإنسان ألا يضيف إلى الألم حقيقةً غير موجودة. من حقك أن تقول: تألمت، لكن ليس من الحق أن تقول: لن أُشفى أبدًا. من حقك أن تقول: ضاق علي رزقي، لكن ليس من الحق أن تجعل خزائن الله مساويةً لما في يدك الآن. من حقك أن تقول: لا أرى مخرجًا، لكن السورة تذكرك بأن عدم رؤيتك للمخرج ليس دليلًا على عدم قدرة الله أن يجعله.

ولذلك ربما كانت سورة الطلاق سورةً لكل فقد، وإن كان موضوعها التشريعي مخصوصًا؛ لأنها تعلم طريقة عبور النهايات: اضبط نفسك حين تضطرب، احفظ الحدود حين تغريك الفوضى، لا تؤذ من خاصمت، أدّ الحقوق ولو برد قلبك، لا تجعل الخوف من الغد يدفعك إلى معصية اليوم، توكل بعد أن تعمل، وافهم أن للأمور أقدارًا وأوقاتًا، وانتظر اليسر دون أن تفرض على الله صورته، ثم ارفع عينيك من ضيق الحدث إلى سعة الخالق.

خاتمة: لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا

تبقى هذه الجملة، بعد انتهاء السورة، كأنها الصوت الذي لا يغادر القلب: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾. إنها لا تخص الرجعة الزوجية وحدها في إشعاعها التدبري، وإن كان السياق يتصل بها، بل تحمل للروح أدبًا عظيمًا مع المستقبل: لا تحكم على الغد من داخل ألم اليوم، ولا تكتب خاتمة القصة وأنت ما تزال في منتصفها، ولا تقل «انتهى كل شيء» بينما ربك الذي يخلق الأشياء من العدم يقول لك إنك لا تدري.

لا تدري كم من قسوة هذه المرحلة ستصنع فيك رحمة، ولا تدري كم من ضعفك سيعلمك أن تتعلق بالله، ولا تدري أي باب رزق يولد من فقد، وأي إنسان ستصبحه بعد أن تعبر هذا الوادي، ولا تدري أي شر صرفه الله عنك حين منعك شيئًا بكيت عليه، ولا أي خير هيأه لك خلف ستار التأخير. إنك تعرف اللحظة، لكن الله أحاط بكل شيء علمًا، وتعرف حدود قوتك، لكن الله على كل شيء قدير.

وهكذا تغلق سورة الطلاق أبوابها بعد أن فتحت في القلب أبوابًا كثيرة؛ دخلناها ونحن ننظر إلى بيت يتصدع، وخرجنا منها ونحن ننظر إلى سبع سماوات، دخلناها نحصي عدةً محدودة الأيام، وخرجنا منها أمام علم أحاط بكل شيء، دخلناها نخاف النفقة وضيق الرزق، وخرجنا منها ونحن نسمع وعد ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾، دخلناها في عسر العلاقات البشرية، وخرجنا منها بوعد ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾.

ومن هنا يبدو أن الرسالة الكبرى للسورة ليست أن الحياة لن تنكسر، بل أن المؤمن يستطيع، بهداية الله، ألا ينكسر معها؛ ليست أن كل علاقة ستبقى، بل أن التقوى

تستطيع أن تبقى حين ترحل العلاقة؛ ليست أن الإنسان سيعرف دائمًا ماذا سيحدث، بل أن جهله بالمستقبل لا يخيفه ما دام يعلم من بيده المستقبل.

فإذا أُغلقت نافذة، فلا تظن أن الهواء قد انتهى، وإذا فارقك مألوف، فلا تظن أن عطاء الله فارقك معه، وإذا أصبح الغد صفحةً بيضاء لا تعرف ما سيكتب فيها، فلا تملأها أنت بسواد مخاوفك قبل أن يكتب الله فيها قدره؛ وحسب القلب أن يحمل معه من هذه السورة ثلاث حقائق لا تهزمها العواصف: أن من يتق الله يجعل له مخرجًا، وأن من يتوكل على الله فهو حسبه، وأن الله سيجعل بعد عسر يسرًا.

وبين المخرج والكفاية واليسر نتعلم الروح سرًا من أسرار العبودية: أن النجاة ليست دائمًا في الاحتفاظ بما نحب، بل قد تكون أحيانًا في أن نفقد شيئًا ولا نفقد الله، وأن تنتهي مرحلة ولا ينتهي الرجاء، وأن نقف أمام الباب الذي أُغلق ثم نسمع في داخلنا، أصفى من ضجيج الخوف كله:

﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾.

القراءة الثانية

كيف يحوِّل القرآن لحظة الانهيار إلى مدرسة في اليقين

إذا كانت القراءة الأولى لسورة الطلاق قد أخذتنا مع الآيات في مجراها الظاهر، من أحكام الفراق إلى إشراقات التقوى والرزق واليسر، فإن القراءة الأعمق تكشف أن السورة لا تعالج حدثًا عائليًا فحسب، بل تعيد تشكيل وعي الإنسان كلّه في اللحظة التي يفقد فيها السيطرة على حياته؛ فهي سورةٌ عن الحدود حين تضطرب المشاعر، وعن المستقبل حين تنطفئ خرائطه، وعن الرزق حين يخاف القلب انقطاع الأسباب، وعن قدرة الله حين تستنفد القدرة البشرية حيلها، ولذلك يمكن أن تقرأ السورة كلها بوصفها انتقالًا متدرجًا من وهم السيطرة إلى حقيقة العبودية، ومن القلق الذي يريد أن يمسك بكل شيء إلى التوكل الذي يعمل بما يستطيع ثم يضع ما لا يستطيع في يد الله.

وأول ما يلفت النظر أن السورة تبدأ بالفعل الإنساني: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾، وتنتهي بالفعل الإلهي الكوني: ﴿يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾؛ وكأن المسافة بين أول السورة وآخرها هي المسافة التي ينبغي للقلب أن يقطعها من الانشغال بما يفعله الإنسان إلى اليقين بما يفعله الله. تبدأ وأنت منشغل بقرارك: أطلقت أم لم تطلق، أمسكت أم فارقت، أنفقت أم قصرت، ثم ترفعك الآيات قليلًا قليلًا حتى ترى أن حياتك الشخصية كلها نقطة داخل سلطان إلهي واسع، وأن أمرك لا يخرج لحظةً واحدة عن الأمر الأعلى الذي يتنزل بين السماوات والأرض. إنك فاعل، نعم، ومسؤول، نعم، ومحاسب، نعم، لكنك لست سيد المشهد كله؛ وهذه المعرفة وحدها قادرة على تخفيف شيء هائل من قلق الإنسان، لأن أكثر ما يرهقه ليس حجم العمل الذي يجب أن يقوم به، بل وهم أنه مسؤول عن النتائج جميعًا.

والسورة من بدايتها تعلمنا الفصل بين مسؤوليتك وقدرة الله؛ مسؤوليتك أن تتقي، وأن تعدل، وأن تضبط العدة، وألا تضار، وأن تنفق بحسب وسعك، وأن تشهد بالحق، وأن تأتمر بالمعروف، أما صناعة المخرج فليست وظيفتك، وصناعة الرزق من حيث لا تحتسب ليست وظيفتك، وبلوغ الأمر غايته ليس وظيفتك، وخلق اليسر بعد العسر ليس وظيفتك؛ ولهذا جاءت الأفعال الإلهية متتابعةً كأنها تسترد من قلب الإنسان ما حمّله

نفسه بغير حق: ﴿يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾، ﴿وَيَرْزُقْهُ﴾، ﴿فَهُوَ حَسْبُهُ﴾، ﴿بَالِغُ أَمْرِهِ﴾، ﴿يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾، ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ﴾، ﴿يُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾، ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾. كأن السورة تقول لك: افعل ما كُلِّفت به، ولا تحاول أن تقوم مقام الله فيما تكفّل هو به.

وهنا يمكن أن نفهم لماذا جاءت التقوى بهذا الحضور الكثيف في سورة الطلاق؛ لأن الأزمة العاطفية من أكثر المواطن التي يختلط فيها التكليف بالرغبة، فيعرف الإنسان ما يجب عليه لكنه لا يريد فعله، ويعرف ما لا يجوز له لكنه يجد في نفسه شهوةً لفعله، ولذلك لا تكفي المعرفة القانونية وحدها؛ فقد يعرف الإنسان الحكم كاملًا ثم يتحايل عليه، أو يؤدي الحق في صورته ويفرغه من روحه، أو يمتثل ظاهريًا بينما يتعمد الإضرار باطنًا. ولهذا لم تقل السورة فقط: التزموا الأحكام، بل قالت: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾؛ لأن التقوى هي الحارس الموجود حين تغيب المحكمة، وهي العين التي تبقى مفتوحةً حين لا يرى أحد ما يحدث خلف الأبواب، وهي التي تمنع الإنسان من أن يستخدم القانون نفسه حيلةً للظلم.

وهذا من أعمق أسرار التشريع القرآني؛ فهو لا يثق بالنظام وحده إذا مات الضمير، ولا يكتفي بالضمير إذا غاب النظام، بل يجمع بين الحد والتقوى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ من جهة، و﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ﴾ من جهة أخرى. فالحد يمنع الفوضى من الخارج، والتقوى تمنع التحايل من الداخل، وإذا اجتمعا أمكن للعدل أن يعيش حتى في أكثر العلاقات توترًا.

ثم إن السورة تعيد تعريف المخرج تعريفًا دقيقًا؛ فالإنسان حين يقع في محنة يطلب غالبًا نتيجةً بعينها ويسميها «الفرج»، فيقول: الفرج أن تعود العلاقة، أو أن يبقى البيت، أو أن أحصل على المبلغ الذي أريده، أو أن يتحقق المستقبل الذي رسمته، فإذا لم يحدث ذلك ظن أن الله لم يفرج عنه، مع أن القرآن لم يقل: ومن يتق الله يعطه النتيجة التي تخيلها، وإنما قال: ﴿يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾. والمخرج أوسع من رغبتك؛ قد يكون في الرجوع، وقد يكون في الفراق، وقد يكون في تغير الطرف الآخر، وقد يكون في تغيرك أنت، وقد يكون في رزق بديل، وقد يكون في قدرة جديدة على الاحتمال، وقد يكون في انكشاف حقيقة

كنت غافلًا عنها. المخرج ليس دائمًا الباب الذي تشير إليه، بل الباب الذي يعلمه الله نجاةً لك.

ولعل لهذا السبب جاء بعد المخرج مباشرة: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾، لأن أكبر عائق أمام رؤية المخرج هو أن الإنسان يريد أن يأتيه من «حيث يحتسب». إنه يحب أن يعرف المصدر مسبقًا، وأن يرى السلم قبل أن يصعد، وأن يملك جدولًا زمنيًا واضحًا للنجاة، لكن الإيمان يُدخل عنصرًا لا تستطيع الحسابات المادية أن تحتويه: من حيث لا يحتسب. وهذه العبارة لا تدعو إلى الفوضى أو ترك الأسباب، وإنما تحرر القلب من الاعتقاد أن الأسباب التي يراها هي جميع الأسباب الموجودة. أنت مطالب أن تحصي ما تستطيع، لكنك ممنوع من أن تحصي قدرة الله داخل جداولك.

والقرآن هنا يربي القلب على التمييز بين الحساب والاحتساب؛ ففي أول السورة قال: ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾، أي كن دقيقًا فيما تستطيع ضبطه، ثم قال في الرزق: ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾، أي لا تتوهم أن كل شيء يخضع لحسابك. ما أبدع هذا التوازن: احسب ما كُلِّفت بحسابه، ولا تحاول حساب ما استأثر الله بتدبيره. كن دقيقًا في الواجب، واسع الرجاء في الغيب.

ومن هذه النقطة يتولد معنى التوكل: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾، وكأن التوكل يأتي بعد أن يتعلم القلب حدوده؛ حين تعرف ما عليك وما ليس عليك، تستطيع أن تتوكل. أما الذي يظن أنه مسؤول عن كل شيء فلن يعرف الراحة، لأن النتائج أوسع من قدرته، والقلوب ليست في يده، والأرزاق ليست في خزائنه، والمستقبل لا يخضع لتخطيطه وحده. التوكل ليس عبارةً يقولها الإنسان بعد أن تنجح خطته، بل مقام يصل إليه عندما يدرك أن خطته مهما كانت محكمة تظل نقطةً صغيرة داخل قدر أكبر.

ثم تأتي الجملة التي ينبغي أن تُقرأ ببطء: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾. لم يقل إن الإنسان بالغ أمره، ولا إن السبب بالغ غايته، ولا إن الخطة ستنجح لأنها جيدة، بل جعل البلوغ لأمر الله. هذه العبارة تقطع جذور الخوف من أن تضيع إرادة الله بسبب تعقيد الواقع؛ فما أراده سبحانه لا تضيع عليه طرق الوصول إليه، ولا يمكن أن يحاصره تدبير البشر، ولا أن

يفاجئه حدث، ولا أن تنشأ في الطريق عقبة لم تدخل في علمه. ومن عرف أن الله بالغ أمره هدأ من ذلك النوع من القلق الذي يجعل الإنسان يراقب كل تفصيل وكأن مصير الكون متوقف على تدخله.

ثم كأن القلب يقول: ولماذا يتأخر بعض ما أرجوه إذن؟ فيأتي الجواب: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾. وهذه ليست جملةً عن المقدار فقط، بل عن التوقيت والحدود والنضج؛ لكل شيء قدرٌ لا يستعجله شوقك ولا يؤخره خوفك. بعض الأشياء لو جاءت قبل أوانها لأفسدتك، وبعض الحقائق لو انكشفت دفعةً واحدة لسحقتك، وبعض الأبواب لا تُفتح إلا بعد أن تصبح أنت الشخص القادر على الدخول منها. ولذلك قد يكون التأخير نفسه جزءًا من العطاء، وقد يكون الفراغ بين الدعاء والإجابة زمنًا تُصنع فيه أهليتك للجواب.

وهنا تتشكل في السورة علاقة عجيبة بين القدر واليسر؛ ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾، ثم ﴿يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾، ثم ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾. فالذي قدّر العسر هو نفسه الذي يخلق اليسر، ولذلك لا يجوز أن نتعامل مع العسر كأنه قوة مستقلة تنازع الله سلطانه؛ العسر مخلوق، محدود، مقدر، وله سقف لا يستطيع أن يتجاوزه. وربما كان من أجمل ما يمكن أن يسكن إليه الإنسان في أوقات المحنة أن يقول لنفسه: هذا الألم ليس بلا حافة، وهذا الليل ليس كائنًا أبديًا، وهذا الضغط لا يملك أن يمد عمره ثانيةً واحدةً بعد القدر الذي كتبه الله له.

ومن هنا يظهر الفرق بين الإيمان بالعسر وعبادة العسر؛ الإيمان بالعسر أن تعترف بأنه موجود وأنه يؤلم وأنه يحتاج إلى صبر وعمل، أما عبادة العسر فهي أن تمنحه صفات لا يملكها: أن تظنه أبديًا، ومطلقًا، ولا منفذ منه، وأن تجعل وجوده دليلًا على غياب الخير كله. وسورة الطلاق تحطم هذه الوثنية الخفية حين تقول: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾؛ فالعسر ليس إلهًا، وليس له الكلمة الأخيرة.

ثم ثَمَّةَ معنى نفسي بديع في ترتيب السورة؛ فهي لا تطلب من الإنسان في لحظة الفقد أن يكون بلا مشاعر، لكنها تطلب منه ألا يحوّل المشاعر إلى قوانين. يستطيع أن يحزن،

لكنه لا يظلم؛ يستطيع أن يغضب، لكنه لا يضر؛ يستطيع أن يكره استمرار العلاقة، لكنه لا يهدر الحقوق؛ يستطيع أن يشعر بالخوف من المستقبل، لكنه لا يأكل حق غيره ليؤمّن نفسه. وهذا من أرقى ما يمكن أن تصنعه التربية القرآنية: لا تلغي الإنسان، لكنها تهذب سلطته على نفسه.

وهنا نفهم عمق قوله: ﴿لَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾؛ فالقرآن يعرف أن الإنسان قد لا يضرب ولا يسب، لكنه يستطيع أن يصنع بيئةً كاملةً من الخنق النفسي، وأن يستخدم المال والسكن والانتظار والأولاد وسائل ضغط، ولهذا دخل الوحي إلى ما وراء الأفعال الظاهرة فكشف قصد التضييق نفسه. ومن ثم فإن الأخلاق القرآنية لا تبدأ عند الحد الأدنى القانوني، بل تسأل عن الروح التي تحرك السلوك؛ قد تكون في الظاهر لم تخالف نصًا، لكنك بنيت تصرفك كله على نية الإيذاء، والله يعلم السر الذي لا تكتبه المحاكم.

ولذلك جاءت كلمة ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ أكثر من مرة لتبني منطقةً أخلاقيةً أوسع من حرفية القانون؛ فالمعروف هو ما تعرفه الفطر السليمة وتقره الشريعة من عدل وإحسان وإنصاف، وهو الكلمة التي تترك مساحةً لنبل الإنسان بعد أن ينتهي الحد الإلزامي. قد تستطيع قانونًا أن تفعل شيئًا، لكن المعروف يقول لك: ليس كل ما تستطيع فعله يليق بك.

ولعل من أجمل ما في هذه السورة أنها ترفض تحويل الماضي الجميل إلى سلاح في الحاضر القاسي؛ فالإنسان حين يفارق من عاش معه يعرف عنه أشياء لا يعرفها غيره، ويملك من أسراره ومواطن ضعفه ما يستطيع أن يدمر به صورته، وهنا يظهر معدن الأخلاق. إن حفظ السر بعد انطفاء الحب مرتبةٌ عاليةٌ؛ لأن الأمانة التي كانت قائمةً في زمن الوصل لا ينبغي أن تتحول إلى خيانة حين يقع الفراق. وما لم تصرح به السورة لفظًا في هذا التفصيل تنطوي عليه روح ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ و﴿وَلَا تُضَارُّوهُنَّ﴾ و﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾.

ثم ينبغي أن نتوقف طويلًا أمام العبارة الفريدة: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾، لأنها لا تزرع الرجاء فقط، بل تهذب غرور المعرفة. الإنسان في الغضب يكون شديد اليقين؛ يظن أنه يعرف الآخر تمامًا، ويعرف المستقبل، ويعرف أن الأمور لن تتغير،

ويعرف أن هذا القرار هو النهاية، ثم يأتي القرآن بكلمتين تهدمان هذا الوهم: ﴿لَا تَدْرِي﴾. أنت لا تدري قلبك بعد شهر، ولا قلب الآخر بعد زمن، ولا الظروف التي ستنشأ، ولا حكمة الله التي ستنكشف، ولا الأبواب التي ستُفتح؛ ولذلك كان من الحكمة ألا يتصرف الإنسان في لحظة الانفعال كأنه نبيٌّ بالمستقبل.

كم من قرار قاطع اتخذه إنسان لأنه كان يتعامل مع شعوره الحالي كأنه حقيقة أبدية، ثم بعد زمن اكتشف أن الشعور كان موجة، وأن الموجة مرت، لكن القرارات التي اتخذها تحتها بقيت آثارها. وسورة الطلاق تبني داخل لحظة الانفصال فسحةً زمنيةً تمنع اللحظة من أن تبتلع العمر كله؛ العدة ليست زمنًا فقهيًا فقط، بل يمكن أن نرى فيها أيضًا حكمةً اجتماعيةً عميقة: لا تجعل النهاية أسرع من قدرة النفس على رؤية ما يحدث.

ثم إن السورة تُخرج الإنسان من عبودية النتيجة إلى شرف الموقف؛ ففي كثير من أزمات الحياة ينشغل المرء بالسؤال: هل سأربح؟ هل سيعود؟ هل ستنجح الخطة؟ هل سيتغير الواقع؟ لكن القرآن يسأله أولًا: هل اتقيت الله؟ هل عدلت؟ هل حفظت الحد؟ لأن قيمة الإنسان عند الله لا تُقاس فقط بما انتهى إليه الحدث، بل بكيفية عبوره له. قد تنتهي القصة بما لم تكن تريد، ومع ذلك تكون قد خرجت منها أقرب إلى الله، أنقى ضميرًا، وأعظم أجرًا؛ وهذا نجاح لا تستطيع مقاييس الدنيا وحدها أن تراه.

ولهذا جاءت الآخرة في السورة في موضع بالغ الدلالة؛ فبعد حساب النفقات والأشهر والسكن، يفتح القرآن فجأةً أفق الجنة، لأن الإنسان يحتاج حين تتآكل منه الدنيا إلى أن يتذكر أن حياته ليست هذه القطعة الصغيرة من الزمن. بعض الأزمات تبدو ساحقةً لأننا نقيسها على عمر الدنيا وحده، فإذا دخلت الآخرة في الحساب تغيرت النسب؛ ما دامت النهاية الحقيقية ليست القبر، وما دام العدل الكامل ليس مطلوبًا أن يتم كله هنا، وما دام ما تفقده في سبيل الله يمكن أن تجده أعظم عنده، فليس شيء من خسائر الدنيا قادرًا وحده على تعريف مصيرك.

ثم تأتي النهاية الكونية فتبلغ السورة ذروتها: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾. كأن القرآن يضع أزمة الإنسان أمام خلفية كونية هائلة، لا ليحقّر ألمه، بل ليضعه في حجمه

الصحيح. الجرح كبير عليك، لكنه ليس كبيرًا على الله؛ المسألة معقدة في حساباتك، لكنها ليست معقدة على من أحاط بكل شيء علمًا؛ المستقبل غامض بالنسبة إليك، لكنه ليس غيبًا بالنسبة إليه؛ الأسباب قليلة في يدك، لكنك لا تتعامل مع ما في يدك فقط، بل مع من بيده خزائن السماوات والأرض.

ومن أروع ما يمكن أن يستخرجه القلب من خاتمة السورة أن العلم والقدرة اجتمعا فيها، لأن الخوف الإنساني يعود في جوهره إلى سؤالين: هل يعلم الله؟ وهل يستطيع؟ فجاء الجواب كاملًا: ﴿أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، فلا شيء يعجزه، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾، فلا شيء يخفى عليه. يعلم ما حدث فعلًا، لا الروايات المتناقضة عنه، ويعلم ما في الصدور، ويعلم الظلم الذي لم تستطع إثباته، والدمعة التي لم يرها أحد، والخوف الذي لم تصفه، ويملك بعد هذا العلم قدرةً لا يعجزها إصلاح ما انكسر أو تعويض ما فات أو إقامة العدل في الوقت الذي يشاء.

وهكذا تصبح سورة الطلاق، في قراءتها الأعمق، سورةً في تحرير القلب من الابتزاز الذي تمارسه النهايات؛ فالنهاية تقول لك: لن يبدأ شيء بعدي، والسورة تقول: ﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾؛ والفقر يقول: لم يبق مصدر، والسورة تقول: ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾؛ والقلق يقول: من يكفيني؟ والسورة تقول: ﴿فَهُوَ حَسْبُهُ﴾؛ والتعقيد يقول: لا حل، والسورة تقول: ﴿يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾؛ والعسر يقول: سأبقى، والسورة تقول: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾؛ والوحدة تقول: لا أحد يعلم حقيقة ما جرى، والسورة تختم: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.

وهنا يبلغ القلب آخر الدرس: ليست الطمأنينة أن تعرف ماذا سيحدث غدًا، بل أن تعرف من يملك غدًا؛ وليست السكينة أن تختفي كل الاحتمالات المؤلمة، بل أن تعلم أن أي احتمال يقع لن يخرجك من علم الله ولا من قدرته ولا من رحمته ولا من إمكان أن يجعل لك منه مخرجًا.

فلعل أعظم كلمة يأخذها الإنسان معه من هذه السورة حين يخرج منها ليست «الطلاق»، بل «يجعل»؛ لأن كل شيء في اللحظة قد يبدو جامدًا: جدار، نهاية، فقر،

خوف، خصومة، عسر، لكن الله «يجعل»؛ يجعل المخرج، ويجعل اليسر، ويجعل بعد العسر يسرًا. وبين ما هو كائن الآن وما سيجعله الله بعده مساحةٌ كاملة اسمها: الرجاء.

وفي تلك المساحة يعيش المؤمن؛ لا ينكر الحاضر، ولا يعبده، لا يهمل الأسباب، ولا يؤلّهها، لا يحتقر الألم، ولا يمنحه الحكم النهائي، بل يمشي بين حدوده وهو يردد في أعماقه أن الذي أمره بالتقوى لم يتركه بعدها وحيدًا، وأن وراء كل أمر إلهي عنايةً، ووراء كل قدر حكمةً، ووراء كل عسر إمكانية يسر، وأن أفق الله أوسع دائمًا من أفق اللحظة.

ولهذا، إذا أردنا أن نختصر سورة الطلاق كلها في حركة واحدة، أمكن أن نقول: إنها تنقل الإنسان من إدارة الفراق إلى معرفة الله؛ تبدأ بتعليمك كيف تفارق، وتنتهي بتعليمك من هو الله الذي لا يفارق علمه شيء، ولا تعجز قدرته عن شيء. وبين البداية والنهاية يتعلم القلب أن أعظم ما ينبغي ألا يخسره عند خسارة أي علاقة هو صلته بربه، وأن من خرج من محنته بالله فقد خرج بأثمن مما دخل به، حتى لو ترك خلفه أشياء كان يظن يومًا أنه لا يستطيع الحياة بدونها.